

أليس من العار أن يكون بلد يبلغ بمساحته ضعف مساحة دمشق وفي غناه التجاري من أهم المدن التجارية في البلاد العثمانية وفي طيب مناخه من أجود البقاع وفي مضاء سكانه مثلاً مشهوراً ثم لا تشهد فيه صحيفة عربية واحدة تصدر باسم رجل مسلم من أهلها يعرف طرق الإصلاح ويحسن المطالبة به. ولا مدرسة ابتدائية أهلية تعلم ابن الفلاح والتاجر والصانع ما يلزمه في دينه ودنياه ولا نادياً ولا جمعية ولا شركة تنفع في التعارف والتعاطف والتكافل.

أن معظم البلاد استفادت من نعمة الدستور فهبت تتعلم وتفكر في الإصلاح ولكن حلب على ما ظهر لنا في مؤخره البلدان التي لم تدرك حتى الآن ما يراد بالحرية. أن تلك الطائفة التي تعتر اليوم بأموالها وبينها سيجيء عليها زمن تدثر هي وما جمعت ومن جمعت لهم أن لم تعالج ذلك الضعف المميت بقوة العلم والأخلاق ويستخلف ربنا غيرها في أرضهم ممن يصلحها شأنه في خليفته منذ دحي الأرض ورفع السماء.

قلعة حلب

أصاب الآثار القديمة في هذه المدينة ما أصاب آثار غيرها من البلدان فلم يبق منها إلا أنقاض تنبي بمغلاة السلف في تجويد البناء وإحكامه ومن أهم هذه العاديات قلعة حلب فهي أفخم ما في الديار الحلبية من القلاع بنيت وسط المدينة على أكمة ربما كانت صناعية ويحيط بها خندق عظيم كان القدماء يملئونه ماء ليتعدر الوصول إليها إلا من مدخلها وهذا من أحسن ما يتصور العقل ويقال أن مدينة أي حلب القديمة كانت كلها مبنية في هذه القلعة وقد تعاورتها الأيدي بالبناء في قرون مختلفة وظلت مسكونة إلى سنة ١٨٢٢م أيام حرب الزلازل.

يسير الداخل إلى القلعة على جسر بديع أقيم فوق الخندق فيبلغ برجا خارجا جعل في واجهته أنواع من نوافذ الحديد البديع قيل انه من عهد الملك الظاهر لما وجد في مدخله من كتابة تاريخها سنة ٦٠٥ مع بعض الآيات الكريمة وقد بذل بعض علماء الآثار قدرا وافرا من المال لقلع تلك النوافذ واخذ حديدتها وأحجارها إلى متاحف أوروبا فلم تقبل الحكومة ولا تزال تحظر الدخول إلى القلعة إلا برخصة لأنها جعلت فيها مستودعا لبعض المهمات العسكرية وفي دهليز القلعة المعرج عدة كتابات ونقوش بارزة على الحجر ومنها صورة نمرين على الباب ويساره من أجل ما زبرت أيدي الناقلين على الصخور فإذا دخل المرء من الباب وجد ساحة وأثار عدة شوارع وركاما من الأنقاض بعضها أنقاض جامع ومأذنة وأخرى أنقاض أروقة وأخرى محال لرصد العدو وفي الوسط صهريج كبير يستقى منه إلى اليوم ماء عذب والغالب انه من ماء المطر. والناظر إلى حلب من قلعتها يدرك عظمتها ويتجلى له برها الفسيح البديع ولا سيما زمن الربيع وقد اكتست السهول والجبال بجللها السندسية.

قال ابن الشحنة أول من بنى قلعة حلب سلوقس الذي بنى مدينة حلب وهي على تل مشرف على المدينة وعليها سور محكم البناء وفي وسطها بئر يتزل إليها بمائة وخمس

وعشرين درجة قد هندست تحت الأرض ويقال لها الآن ساطوره وكان بها دير للنصارى ويقال أن في أساسها ثمانية آلاف عمود ولما ملك كسرى حلب بنى بها مواضع ولما فتحها أبو عبيدة في أيام عمر بن الخطاب (رض) رمم أسوارها لأنها خربت بسبب زلزلة كانت أصابها قبل الفتح فاخرت أسوار البلدة والقلعة. ولما

استولى تقفور ملك الروم على حلب سنة ٣٥١ امتنعت عليه القلعة ولم يكن لها يومئذ سور محكم ومن ذلك الوقت اهتم الملوك بعمارة القلعة وتحصينها فبنى سيف الدولة وابنه سعيد الدولة وبنو مرداس وعماد الدين ابي سنقر وابنه عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود وابنه الملك الصالح ولما ملك الملك الظاهر غياث الدين غازي حصنها وحصنها وبنى بها مصنعا للماء ومخازن للغلات وبنى سفح تلها بالحجر المرقلي واعلي بها إلى مكانه الآن وبنى على الباب برجين لم يبق مثلهما قط وجعل لها ثلاثة أبواب حديد ولما تسلم التاتار القلعة أخرجها وأخرب أسوارها واخذ ما كان بها من الذخائر والزردخانات والمجانيق ولم يبقوا بها مكانا للسكنى واستمرت خرابا إلى أن جددت عمارتها في أيام الملك الأشرف خليل بن قلاوون ولما أتى التمرلنك أخرب أسوار البلد والقلعة واحرقها واستمرت خرابا إلى أن جاء الأمير سيف الدين حكيم نائبا من قبل الملك الناصر فرج برقوق فأمر ببناء القلعة وألزم الناس بالعمل في الخندق وأزال التراب منه حتى انه عمل بنفسه واستعمل وجوه الناس بحيث كان الأمراء يحملون الأحجار على ظهورهم.

هذا أجمل تاريخ هذه القلعة البديعة اكبر قلاع سورية واهما إلى القرن العاشر وما نظن العثمانيين جددوا فيها شيئا بعد إلى يومنا هذا وقد وصفها ابن جبير في رحلته فقال: ومن كمال خلالها المشترطة في حصانة القلاع أن الماء بها نابع وقد صنع عليه جبان فهما ينبعان ماء فلا تخاف الظمأ ابد الدهر والطعام يصير فيها الدهر كله وليس في شروط الحصانة أهم ولا أكد من هاتين الخلتين ويطيف بهذين الجبين سوران حصيان من الجانب الذي ينظر للبلد ويعترض دونهما خندق لا يكاد البصر يبلغ مدى عمقه والماء ينبع فيه وشان هذه القلعة في الحصانة أعظم من أن

وأكثر ومع هذا فان أفضية دمشق لا تعادل أفضية حلب في زيتونها قال المهلبي:
وتجلب من كور حلب وضيعها ما يجمع جميع الغلات النفيسة فان بلدة معرة
مصرين وجبل السماق بلد التين والزيتون والزبيب والفسق والسماق والحبة
الخصراء وقال ابن شداد وفي بعض ضياع حلب ما يجمع عشرين صنفا من
الغلات. وقال ابن الشحنة ومما اختصت به حلب ماء الورد النصيبي الذي
يستخرج بالباب من إعمالها فانه لا يوجد في الدنيا مثله بحيث لا يقاربه شيء مما
يجلب إلى الديار المصرية من الشام مع أن المجلوب من دمشق عند المصريين في غاية
العظمة بحيث يصفه أطباؤهم للمرضى فيقولون ماء ورد شامي. وقال ياقوت
ويزرع في أراضيها القطن والسمسّم والبطيخ والخيار والدخن والكروم والذرة
والمشمش والتين والتفاح عذبا لا يسقى إلا بماء المطر ويجيء مع ذلك رخصاً غصاً
روياً يفوق ما يسقى بالمياه والسيح. وقال ابن حوقل أن ما حول معرة نسرين من
القرى أعذاء ليس بجميع نواحيها ماء جار ولا عين وكذلك أكثر ما يجمع جند
قنسرين أعذاء ومياههم من السماء وقال ابن جبير في بلاد المعرة وهي سواد كلها
بشجر الزيتون والتين والفسق وأنواع الفواكه ويتصل التفاف بساتينها وانتظام
قراها مسيرة يومين وهي من أخصب بلاد الله وأطهرها أرزاقاً.

ويصدر من حبوها اليوم الحنطة والشعير والأرز والقطن والحمص والعدس والبقلء
وبذر الكتان والايونسون والسمسّم والخردل والكزبرة اليابسة والماش والقصب
والدخان وغير ذلك ومن الثمار الفسق الجيد في أفضية حلب وقلعة الروم
وعينتاب ويجود الزيتون كل الجودة في أفضية حلب وإدلب وكليس وحارم
وعينتاب وإنطاكية وجسر الشجر ونزيب ويجود الليمون والبرتقال بين إنطاكية

واسكندرونة وفي حلب والباب يجود الرمان وفي أريح الكرز والوشنة كما يجود في حلب وإعمالها أنواع الثمار والبقول على اختلاف ضروبها. ويجود التوت في أفضية إنطاكية إسكندرونة وبيلان وحارم بكثرة فيكون منه حرير جيد وفي أفضية الولاية ولواء مرعش مثل أفضية جسر الشغرة وإنطاكية وبيلان وكليس واسكندرونة وقلعة الروم من أعمال اورفة تخرج غابات كثيرة كالبلوط والدر دار والصنوبر والعفص والدفلة وغيرها وف جبال البستان تخرج على أطراف الأنهار والجداول أشجار برية من الحور والصفصاف وفي السهول عرق السوس ففي داخل الولاية يكثر التين والعنب والأجاص والدراق وفي السواحل الليمون والبرتقال والكراد والطورنج ويكي دنيا وفي هذه الولاية يكثر البصل والثوم ويجود البطيخ الأحمر (الجبس) من وراء العقلة وتزرع البطاطا في بعض الأثناء كما أن الكمأة تستخرج من باديتها وسهولها.

هواء حلب وصحتها

يبلغ ارتفاع حلب خمسمائة متر عن سطح البحر وبالنظر لتعرضها لحرارة الشمس من جهاتها الأربع وعبث الرياح التي لا يحول دونها حائل من الأشجار أو غيرها كان بردها شديداً وحرها على تلك النسبة فهوائها اقل اعتدالا من هواء دمشق يزيد في ذلك قلة مياهها في الدور كما هي في دور الفيحاء المشهورة بقاعاتها وأحواضها فهواء حلب جاف معتدل للغاية ولولا بناء منازلها بالحجر لضاقت أنفاس سكانها أيام القيظ وقد تبلغ درجة الحرارة الأربعين أو أكثر بالميزان الثوي وقد نزلت الحرارة في الشتاء الماضي إلى تحت الصفر بخمس وعشرين درجة.